

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

مضت خمس سنوات على ظهور الجزء الأول من هذا التفسير البياني ، نفذت خلالها ثلاث طبعات منه ، وظهرت منه طبعة أخرى مسروقة في بيروت ، قبل أن يتاح لي تقديم هذا الجزء الثاني الذي طال انتظاره .
وعلى مدى تلك السنوات ، تابعت العكوف على تدبير البيان القرآني والانقطاع لخدمة كتابنا الأكبر ، فكنت كلما اجتليت باهر أسراره البيانية ، ألفت من الصعب أن أقدمها على النحو الذي يني بجلالها ، وتبئت أن أؤدي بالمألوف من تعبيرنا ، أسراراً من البيان المعجز تدق وتشف ، حتى لتجمل عن الوصف وتبدو كلماتنا حياها عاجزة صماء !
فإن أكن قد جرؤت على تقديم هذا الجزء الجديد من التفسير البياني بعد طول تهبب ومعاناة ، فليشفع لي أفي حشدة له كل طاقتي وجهدي ، وأن الأمر فيه يتجاوز كل طاقة وجهد .

• • •

والمنهج المتبع هنا ، هو الذي خضعت له فيما قدمت من قبل ، بضوابطه الصارمة التي تأخذنا باستقراء اللفظ القرآني في كل مواضع وروده ، للوصول إلى دلالاته ، وعرض الظاهرة الأسلوبية على كل نظائرها في الكتاب المحكم ، وتدبر سياقها الخاص في الآية والسورة ، ثم سياقها العام في المصحف كله ، التماساً لسرّها البياني .
وإذ نضع معاجم العربية وكتب التفسير في خدمة هذا المنهج ، فإننا نحاول أن ندرك حس العربية للألفاظ التي نتدبرها من النص القرآني ، عن طريق لمح الدلالة المشتركة في شتى وجوه استعمالها لكل لفظ . وواضح أنه لا سبيل إلى دراسة أي نص في لغة

ما ، دون فقه لألفاظه في لغته . ثم يكون للنص بعد ذلك أن يحدد لكل لفظ دلالاته الخاصة ، من شتى الدلالات المعجمية ، أو يضيف إليها ملحظاً ينفرد به . والقول بدلالة خاصة للكلمة القرآنية ، لا يعني تحطئة سائر الدلالات المعجمية ، كما أن إثارة القرآن لصيغة بعينها ، لا يعني تحطئة سواها من الصيغ في فصحي العربية . بل يعني أننا نقدر أن لهذا القرآن معجمه الخاص وبيانه المعجز ، فنقول إن هذه الصيغة أو الدلالة قرآنية ، ثم لا يُعترض علينا بأن العربية تعرف صيغاً ودلالات أخرى للكلمة .

• • •

والأمر كذلك فيما يهذى إليه الاستقراء من وجوه بيانية وظواهر أسلوبية ، نقدمها منه دون أن نخشى فيها مخالفة لبعض قواعد النحويين وأحكام البلاغيين . لأن الأصل أن تُعرض قواعدهم وأحكامهم على البيان الأعلى ، لا أن نعرض القرآن عليها ونخضعه لها . ويبدو أننا في حاجة ماسة إلى إعادة النظر في قواعد النحو المدرسية وأحكام الصنعة البلاغية ، في ضوء ما هدى ويهذى إليه التدبر الاستقرائي لكتاب العربية الأكبر ، في بيانه المعجز^(١) .

كما نتفع بجهود المفسرين حين نعرض أقوالهم على القرآن الكريم ، فنقبل منها ما يحتمله نصاً وسباقاً . ثم يكون إيرادنا للأقوال الأخرى التي لا يقبلها النص ، لفتاً إلى وجه الشطط فيها أو التكلف والاعتساف ، وتنبهاً إلى ما ينبغي من حذر وحرص ، لاتقاء التورط في مقحم التأويلات المذهبية والمدسوسات الإسرائيلية .

• • •

وأراني في حاجة إلى تقرير مسألتين في المنهج :

أولاهما : أن المرويات في أسباب النزول موضع اعتبار في فهم الظروف التي لا بست نزول الآية . مع تقدير أن الصحابة الذين عاصروا نزولها ورؤيت عنهم أقوال (١) عالجت هذه القضية بشيء من التفصيل في بحث (من أسرار العربية في البيان القرآني) نشرته جامعة بيروت العربية سنة ١٩٧٢ .

ثم تفرغت لدراستها في كتاب (الإعجاز البياني للقرآن ، ومسائل ابن الأزرقي) ط دار المعارف بالقاهرة

فيها ، ربطها كل منهم بما وَهَمَ أو فهم أنه السبب في نزولها . وهذا هو معنى قول علماء القرآن : إن الرويات في أسباب النزول يكثر فيها الوهم .

ونقدر معه أن السببية فيها ليست بمعنى العلية التي لولاها ما نزلت الآية . وأن العبرة في كل حال ، بعموم اللفظ المفهوم من صريح نصها ، إلا أن يتعين الاعتبار بخصوص السبب الذي نزلت فيه بدليل من صريح النص أو بقريته بينة .

والأخرى : أن ترتيب النزول موضع اعتبار كذلك ، لفهم السياق العام لما تندبر من آيات القرآن ودلالات ألفاظه وخصائص بيانه في المصحف كله « ولو كان من عند غير الله لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا » .

وبعدُ وقبل ، فإن القضية الكبرى في هذا التفسير ، وكل تفسير ، هي أنه لا يعني بحال ما ، تقديم كلمة يمكن أن تقوم مقام الكلمة القرآنية في سياقها ، على وجه المماثلة والترادف ، فهيات لبشر أن يأتي بآية من مثل هذا القرآن .

التفسير ليس إلا محاولة للفهم على وجه الشرح والتقريب ، بالكلمات المفسرة ، لا على أنها والكلمات القرآنية سواء . ولعل هذا مما حمل المفسرين على الإطالة في الشرح والتكثير في وجوه التأويل للكلمة أو الآية القرآنية ، من حيث يتعذر علينا جميعاً الإتيان بكلمة أخرى ماثلة لها ، في موضعها من البيان المعجز .

ولست ببحث أجهل أن المدى الذي بلغته في محاولتي ، محدود بطاقتي وجهدي . ويظل المجال مفتوحاً لعطاء أبنائي الصفوة ، طلاب الدراسات القرآنية العليا الذين أحظى بصحبته في أعرق الجامعات الإسلامية . ويظل مفتوحاً بعدنا لجهد أجيال من العلماء تتعاقب على تدبر كتابنا الأكبر فتدرك منه ما فاتنا أن ندركه ، وتستشرف لآفاق قصرت محاولتنا عن مداها .

ويبقى من أسراره ما يفوت طاقة البشر :

« وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » . صدق الله العظيم

المغرب } شوال ١٣٩٧ هـ
أكتوبر ١٩٧٧ م